

دكان الصور المنسية

رواية أدبية أصلية



حمادة حامد محمود نور الدين

إهداء

إلى كلّ صورةٍ ضاعت في زحام الأيام، وإلى كلّ ذاكرةٍ ما زالت تنتظر مَن يعيدها إلى أصحابها.

وإلى قريتي التي علّمتني أنّ الضوء لا يأتي من السماء وحدها، بل من عيون الناس أيضاً.

تمهيد

في قريةٍ صغيرة على ضفّة النيل، حيث تكبر النخلات حتى تظنّها تلمس السحاب، كان هناك دكانٌ قديم لا يُفتح إلا بعد الغروب. قالوا عنه الكثير، وصدّقوا القليل، لكنّ أحداً لم يعرف الحقيقة كاملةً حتى جاء يوسف، وحمل المفتاح.

الفصل الأول: مفتاح الدكان

مات الجدّ عبد الله في ليلةٍ هادئة من ليالي الشتاء، هادئةً كما كان هو في سنواته الأخيرة. لم يترك وراءه أرضاً ولا مالاً، ولا حتى كلمات وداعٍ كثيرة. ترك مفتاحاً نحاسياً صغيراً في علبة سجائر قديمة، وورقةً مطويةً كتب عليها بخطٍّ مائل: «لمن يجرؤ على إرجاع ما نسيه الناس».

كان يوسف في الرابعة والعشرين من عمره. درس في المعهد الفندقي كما أرادت له أمه مستقبلاً آمناً، وعمل نهاراً في فندقٍ صغير على كورنيش سوهاج، يرتّب الغرف ويحفظ ابتسامته للنزلاء. لكنّ شيئاً آخر كان يسكنه منذ صغره: الكاميرا. كان يرى في الضوء كلاماً لا يقوله الناس، وفي الظلّ أسراراً لا ترويها الحكايات العادية.

في الليلة الثالثة بعد الدفن، حمل المفتاح ومشى في أزقّة القرية حتى وصل إلى الدكان القديم عند منحنى النهر. بابٌ خشبيٌّ أزرق بهت لونه من الشمس، ولوحةٌ صدئة كُتب عليها بحروفٍ نصف محوها الزمن: «استوديو النور». أدار المفتاح فصرّ الباب صريراً طويلاً كأنه يتثاءب بعد نومٍ دام عشرين عاماً.

في الداخل كان الغبار يرقص في شعاع المصباح كأنه نجوم صغيرة. رأفةٌ غريبة ملأت صدره وهو يمسح بكفّه طاولة التحميض، وعدسات قديمة، وصناديق من صفائح الزجاج. وفي الركن، مغطّاةً بقماشٍ أسود، وقفت كاميرا جدّه الخشبية على حاملها النحاسي، كأنها تمثالٌ لإلهٍ قديم نسيه الناس ولم ينسَ هو أحداً.

تحت الكاميرا وجد دفتراً جلدياً. في صفحته الأولى سطرٌ واحد: «هذه الكاميرا لا تصوّر ما تراه العين. هذه الكاميرا تصوّر ما نسيته الروح». قرأ الجملة ثلاث مرات، وضحك في نفسه، وأغلق الدفتر. ثم بقي مستيقظاً حتى الفجر وهو يستمع إلى النهر، وكان النهر تلك الليلة يتحدّث بصوتٍ أعلى من المعتاد.

الفصل الثاني: أول صورة

جاءت أمّ صالح في عصر يوم الخميس، حين كانت الشمس تميل نحو المغيب وتصبغ جدران القرية بلون العسل. امرأةٌ في الثمانين، ظهرها محنيّ كسعفة نخلةٍ هرمة، وعيناها تحملان ضباب النسيان منذ سنوات. قالت وهي تضع على الطاولة قطعة نقودٍ ورقية قديمة: «سمعت إنك فتحت دكان جدّك. صوّرني. يمكن أفتكر».

أراد يوسف أن يعتذر، أن يشرح لها أن الكاميرا مجرد خردة قديمة، لكنّ شيئاً في عينيها منعه. أجلسها على المقعد الخشبي أمام الستارة البيضاء، ورفع القماش الأسود، ونظر من فتحة الضبط. وفي تلك اللحظة حدث ما لم يتوقّعه: لم يرَ في العدسة عجوزاً منحنية، بل رأى عروساً شابة تضحك، وخلفها نخلاتٌ تهتز، ورجالٌ يقرعون الدفوف.

ضغط الزرّ دون أن يفكّر. رعشةٌ خفيفة مرّت في الكاميرا، وصوتٌ أشبه بتنهيدة. حمل الصفيحة إلى غرفة التحميض المظلمة، وتحت الضوء الأحمر راقب الصورة تطفو في المحلول كوجهٍ يصعد من نومٍ عميق: أمّ صالح عروساً

في يوم زفافها قبل ستين عاماً، بفستانها الأبيض الذي ظنّت أنّ النسيان أكله منذ زمن.

حمل إليها الصورة وقد جفّت. أمسكتها بيدين مرتجفتين، وحدّقت طويلاً، ثم بكت. بكت كما تبكي الأرض بعد جفافٍ طويل، وقالت بصوتٍ مبحوح: «أفتكر... أفتكر يومي ده. كان جوزي واقف تحت النخلة دي، وكان خايف ينطق اسمه غلط قدام الناس». وعادت إلى بيتها تلك الليلة وهي تحكي لبناتها تفاصيل يومٍ عاشته قبل أن يولدن جميعاً.

أمّا يوسف فوقف أمام الكاميرا حتى منتصف الليل، ينظر إليها كما ينظر المرء إلى بئرٍ سمع من قعرها صوتاً يناديه باسمه.



رسم توضيحي بالذكاء الاصطناعي: عرس أم صالح كما عاد في الصورة.

الفصل الثالث: دكان يفتح ليلاً

انتشر الخبر في القرية كما تنتشر رائحة الخبز في الصباح. قالوا إنّ ابن عبد الله المصور يصوّر الذكريات، وإنّ من يقف أمام كاميرته يعود إليه ما أخذته السنين. البعض ضحك، والبعض تشاءم، لكنّهم جميعاً جاءوا، واحداً بعد واحد، عند الغروب.

وصار للدكان موعد لا يكتبه أحد ويعرفه الجميع: يُفتح بعد المغرب، ويُغلق عند الفجر. تعلّم يوسف أنّ الصور المنسية لا تخرج في وضح النهار؛ إنها مثل الأسماك الكبيرة، تقترب من السطح في العتمة فقط.

جاءته الحاجّة كريمة تسأل عن وجه أخيها الذي مات غريقاً وهم صبيان. جاءه المعلّم رمضان يسأل عن ليلةٍ كان فيها شاعراً قبل أن تسرق منه الحياة قصائده. جاءته عجوزٌ لا تريد شيئاً سوى أن تتذكّر رائحة حقل القطن في أكتوبر. ولكلٍّ منهم صوّر يوسف صورة، وفي كل صورةٍ كان الزمن يعود خطوةً إلى الوراء، ويعترف بأنّه لم يأخذ كل شيء.

كان الناس يخرجون من الدكان وعيونهم لامعة كالأطفال. يمشون في الأزقة وكأنهم يسيرون في حلم، يحكون ويضحكون ويبكون، والقرية كلّها صارت في تلك الشهور أقرب إلى العائلة الواحدة؛ فالذكريات حين تعود، تجمع الناس كما يجمع النهر مراكبه في الشتاء.

لكنّ يوسف وحده كان يعرف أنّ للضوء حساباً لا يُرى، وأنّ الدفتر الجلدي القديم ما زالت فيه صفحات لم يقرأها بعد.



رسم توضيحي بالذكاء الاصطناعي: طابور المساء أمام استوديو النور.

الفصل الرابع: الرجل الذي نسي وجه أمه

في ليلةٍ باردة من ليالي ديسمبر، دخل الدكان رجلٌ في الخمسين، اسمه فؤاد، يعمل محاسباً في المدينة ويعيش بعيداً. وقف أمام يوسف وقال دون مقدّمات: «أمي ماتت وأنا عندي ست سنين. الكل بيقول إنها كانت حنينة. أنا مش فاكر وشها. نسيته يا ابني، زي ما تنسى اسم واحد قابلته مرة في قطار».

أجلسه يوسف أمام الكاميرا. الرجل لم يبتسم، وكان وجهه وجه مَن أتعبته الحسابات والأرقام. نظر يوسف من فتحة الضبط، فرأى غرفةً صغيرة مضاءة بلمبة جاز، وامرأةً شابة تهزّ سريراً خشبياً وتغنّي. لم تكن أغنية مسجّلة في أي مكان؛ كانت أغنية أم، والأمهات يؤلّفن أغانيهن كل ليلة من جديد.

حين رأى فؤاد الصورة لم يبكِ فوراً. ظلّ ينظر إليها صامتاً دقائق طويلة، ثم وضع يده على صدره وقال: «الأغنية... أنا فاكر الأغنية. كانت بتقول: نام يا حبيبي والنيل بيحكيلك». ونام فؤاد تلك الليلة في بيت أهله القديم في القرية، وقالوا إنّ جيرانه سمعوه يغنّي في نومه.

بعد أن مضى، جلس يوسف يدوّن في دفتره الخاص ما حدث. كان قد بدأ يسجّل كل صورة: الاسم، والذكرى العائدة، والتاريخ. صار الدكان عنده أرشيفاً لنهرٍ آخر غير نهر النيل: نهر الأيام التي ظنّ الناس أنها انتهت.

الفصل الخامس: دفتر الجد

في ليلةٍ مقمرة، فتح يوسف الدفتر الجلدي القديم وقرأه كاملاً أخيراً. كانت صفحاته الأولى تعليمات: كيف يُحضَّر المحلول، وكيف يُضبط الضوء، وكيف يُقرأ الوجه قبل تصويره. لكنّ الصفحات الأخيرة كانت شيئاً آخر: اعترافاً طويلاً من رجلٍ إلى حفيدٍ لم يولد بعد.

كتب الجدّ عبد الله: «كل ذكرى تعيدها الكاميرا إلى صاحبها تُدفع من ذاكرة المصوّر. الضوء لا يُخلق من عدم يا بنيّ. حين تُرجع للناس أيامهم، ستدفع من أيامك أنت. ذكرى صغيرة في البداية: اسم معلّمك الأول، طعم فاكهة أحببتها، أغنية حفظتها وأنت صغير. لن تشعر. ثم تكبر الفاتورة مع كبر الذكريات».

ارتجفت يد يوسف وهو يقرأ. تذكّر أنّه منذ أسابيع لم يعد يتذكّر اسم مدرّس اللغة العربية في الإعدادية، رغم أنه كان يحبّه. وتذكّر أنّه نسي طعم التين الشوكي الذي كان يقطفه مع أصدقائه في الصيف. ظنّه نسياناً عادياً، وكان ثمناً يُدفع في صمت.

وكتب الجدّ في آخر الدفتر: «أنا دفعت الكثير. أرجعت للقرية كلها ذكرياتها في سنوات السبعينيات، وأرجعت لأبويك حكاية حبّهما حين كادا يفترقان. وفاتورتي الأخيرة كانت كبيرة. ستعرفها يوماً. حين تعرفها، سامحني، ولا تفعل مثلي».

أغلق يوسف الدفتر ونظر من نافذة الدكان إلى النيل. كان النهر أسود تحت القمر، وكان يجري كعادته، لا يعيد قطرةً واحدة إلى الوراء. وفكّر: هل يواصل؟ ثم تذكّر وجه فؤاد وهو يستعيد أغنية أمه، وعينَي أمّ صالح، وقال في نفسه: ذكرياتي كثيرة، وسأنفقها كما ينفق الكرماء أموالهم.



رسم توضيحي بالذكاء الاصطناعي: الثمن الذي يدفعه المصور من ذاكرته.

الفصل السادس: سلمى

جاءت سلمى في أول الربيع، تحمل جدّتها على ذراعها كما تُحمَل أمٌّ صغيرة. الجدّة في التسعين، نسيت كل شيء تقريباً، حتى اسم ابنتها. قالت سلمى بخجل: «سمعنا عنك في المدينة. جدتي كانت بتغني للعرايس زمان، والدكتور قال لو فكرت حاجة من الماضي ممكن حالتها تهدى».

صوّرها يوسف أمام الكاميرا، وفي العدسة رأى امرأةً شابة تغنّي على سطح بيتٍ قديم، والقمر كامل، والقرية كلها تصغي. عادت إلى الجدّة أغنيةٌ كاملة تلك الليلة، أغنية لم تسمعها القرية منذ خمسين عاماً، وظلّت تغنّيها أياماً كاملة قبل أن تعود إلى صمتها، لكنّها صارت تبتسم في صمتها.

أمّا سلمى فبقيت. بقيت تساعد في ترتيب الدكان مساء كل خميس، تعلّق الصور على الحبل المشدود، وتسجّل الأسماء في دفتر يوسف بخطّها الدائري الجميل. كانت تعمل في تصميم الأقمشة، وتقول إنّ الصور القديمة علّمتها أنّ لكل لونٍ حكاية. وبين صورةٍ وأخرى، كان يوسف يكتشف أنّه لم يعد ينتظر الخميس من أجل الصور.

ذات مساء، جلسا على باب الدكان يشربان الشاي، فسألته: «إنت بتدفع إيه مقابل كل ده؟». سكت طويلاً، ثم حكى لها عن دفتر الجدّ، وعن الفاتورة. انتظرت أن يختم حديثه بندم، فلم يفعل. قال فقط: «الذكريات اللي بضيّعها راحت لناس محتاجاها أكتر مني». فنظرت إليه نظرةً لم ينسها بعدها أبداً، وقالت: «طيب أنا هفكرك بيها. أكتبلي كل ذكرى قبل ما تضيع، وأنا هحفظهالك».

ومن تلك الليلة صار للدكان دفترٌ ثانٍ: دفتر ذكريات يوسف نفسه، بخطّ سلمى.



رسم توضيحي بالذكاء الاصطناعي: يوسف وسلمى على ضفة النهر.

الفصل السابع: صورة الغريب

في ليلة صيفيةٍ رطبة، دخل الدكان رجلٌ لم يعرفه أحد في القرية. ستينيّ الملامح، بذلته أنيقة وعيناه مرهقتان كعينَي مسافرٍ ضاع في المحطات. وضع على الطاولة مبلغاً كبيراً وقال: «سمعت عن دكانك في القاهرة. أنا مش عايز ذكرى جميلة. أنا عايز ذكرى واحدة محددة: الليلة اللي بطّلت فيها أحلم».

حكى الرجل أنه كان في شبابه رسّاماً، وأنّ لوحاته علّقت ذات يوم في صالاتٍ كبيرة. ثم جاءت ليلةٌ واحدة، في منتصف الثمانينيات، استيقظ بعدها ولم يعد يرسم. لا يعرف لماذا. أخذته الوظيفة والحسابات والبيوت الكبيرة، وصار رجل أعمالٍ ناجحاً كما تقول الجرائد، وفاشلاً كما يقول قلبه كل ليلة.

نظر يوسف من فتحة الضبط، فرأى مشهداً لم يتوقّعه: شابّاً يقف أمام لوحةٍ نصف مكتملة، وفي اللوحة قريةٌ على نيل، ونافذة بيتٍ مضاءة. وفي الشارع خارج الأتيليه، سيارة تنتظر، ورجلان يقرعان الباب. المشهد الثاني في الصورة كان يد الشاب وهي تحرق الرسومات في حوضٍ معدني، ودموعه تسقط على اللهب فتصفرّ.

حين رأى الرجل الصورة، اهتزّ كأنّ أحدهم أعاد إليه عظماً انكسر منذ أربعين عاماً ولم يُجبَّر. قال بصوتٍ متقطع: «فاكر... كانوا هددوني عشان لوحة. وأنا خفت. خفت وبطّلت، وكدبت على نفسي أربعين سنة وقلت إني كبرت». دفع ثمن الصورة مضاعفاً، ومشى نحو محطة القطار قبل الفجر. بعد شهور، وصل يوسف خطاب من القاهرة فيه لوحة صغيرة مرسومة بيدٍ مرتجفة: قرية على نيل، ودكان صغير بابه أزرق.

الفصل الثامن: الحقيقة الأخيرة للجد

كبر اسم الدكان حتى صار الناس يأتون من محافظاتٍ بعيدة، وكبرت معه فاتورة يوسف. نسي طريق بيت خاله في أسيوط الذي مشاه مئة مرة. نسي اسم أول فتاةٍ أحبّها في المعهد. ثم في صباحٍ واحد، اكتشف أنه لم يعد يتذكّر صوت ضحكة أمه وهي تناديه من شبابيك البيت، وكانت أمه قد ماتت وهو في الخامسة عشرة.

جلس على حافة النهر ذلك الصباح وبكى. لم يبكِ على ذكرى ضاعت، بل على أمه نفسها، وكأنه يفقدها من جديد. وفي تلك الليلة فتح دفتر جدّه على الصفحات الأخيرة التي كان يتجنّبها، وقرأ الحقيقة التي أشار إليها الجدّ: «فاتورتي الأخيرة كانت أغلى ما عندي. أرجعت لأبويك ذكرى حبّهما، فدفعت ذكرياتي عنك أنت يا يوسف. نسيت وجهك وأنت طفل يجري حول الدكان. نسيت أول كلمة قلتها لي: «صوّرني يا جدو». عشت سنواتي الأخيرة أحبّك ولا أعرفك، وأعتذر لك بعينين لا تفهمان لماذا تعتذران».

فهم يوسف أخيراً نظرات جدّه الغريبة في سنواته الأخيرة: الحنان الحذر، والابتسامة البعيدة، واليد التي تمتد لتربّت على كتفه ثم تتردد. لم يكن جدّه قد كبر وثقل؛ كان قد دفع حفيده ثمناً لحبّ اثنين آخرين.

حمل يوسف الدفتر إلى سلمى وقرأ لها الصفحة، وبكيا معاً على باب الدكان، والنيل يمشي ببطءٍ كعجوزٍ يعرف كل الأسرار ولا يقول شيئاً. ثم قالت سلمى وهي تمسك يده: «ذكريات جدك راحت منه، بس هو اختار. وإنت دلوقتي بتختار زيه. بس افتكر إن في ناس بتحبك وعايزاك تفتكرها».

الفصل التاسع: الاختيار

صار يوسف يزن كل صورةٍ قبل أن يلتقطها. صار يسأل نفسه: هل هذه الذكرى تستحق أن أنسى من أجلها اسم شارع طفولتي؟ هل تستحق أغنية؟ هل تستحق وجه أمي؟ وكانت الإجابة تزداد صعوبة كلما ازدادت الفاتورة.

جاءته أمٌّ شابة تحمل طفلها المريض وقالت: «صوّرني أنا وابني، عشان لو راح مني يفضل عندي يوم جميل معاه». وجلس يوسف طويلاً أمام الكاميرا، يداه مرتجفتان. ثم فعل شيئاً لم يفعله من قبل: رفض. قال لها بصوتٍ مكسور: «مش هصوّرك. عيشي اليوم ده مع ابنك، وصوّريه بموبايلك، وخلي الذكرى ليكي إنتي مش ليا أنا».

تعلّم في تلك الليلة أنّ الحكمة ليست في أن تملك قدرة عظيمة، بل في أن تعرف متى لا تستخدمها. الدكان الذي كان يعيد الذكريات صار يعلّم الناس ألا ينتظروا النسيان ليقدّروا أيامهم. صار يوسف يقول لكل من يطرق الباب: «اللي عايزاه مش صورة من الماضي، اللي عايزاه إنك تعيش اللحظة اللي إنت فيها».

لكنّ صورةً واحدة بقيت يجب أن تُلتقط. صورةً واحدة كان يعرف منذ قرأ دفتر الجدّ أنّ نهاية الحكاية مكتوبة عليها.

الفصل العاشر: الصورة الأخيرة

في ليلةٍ من ليالي سبتمبر، حين كان الهواء يحمل أول برد الخريف، أغلق يوسف الدكان مبكراً، وأشعل كل المصابيح، ووقف أمام الكاميرا الخشبية وحده. وجّه العدسة نحو الكرسي الفارغ، وضبط المؤقّت، وجلس. كان يريد ذكرى واحدة، واحدة فقط: وجه جدّه وهو يبتسم له في عيد ميلاده العاشر، اليوم الذي أهداه فيه أول كاميرا لعبة.

عرف أنّ الثمن سيكون غالياً. فكّر طويلاً فيما سيختار أن يدفع: ذكريات فندق المدينة ووجوه النزلاء؟ أم أسماء أصدقاء المعهد؟ ثم خطرت له فكرة أدهشته ببساطتها: سيدفع خوفه. كل ذكرى مرتبطة بالتردد والوجل: ليلة خاف فيها من المستقبل، ويوم ظنّ فيه أنّ الصعيد حدّ لأحلامه، ومرة كاد يترك الكاميرا لأنّ أحدهم سخر منه. كل خوفٍ قديم سيمسحه من ذاكرته ليستعيد ابتسامة جدّه.

وما إن ضغطت الآلة الزمنية الزرّ حتى شعر بشيءٍ يخفّ في صدره، كأنّ حجراً قديماً رُفع عنه. خرجت الصورة بطيئةً في المحلول الأحمر: جدّه شابّاً نسبياً، ضاحكاً، يحمله على كتفيه، والدكان خلفهما مفتوحاً على نيلٍ صافٍ وسماءٍ بيضاء. وفي عينَي الجدّ في الصورة، رأى يوسف ما لم يره قطّ: أنّ الرجل كان يعرف منذ ذلك اليوم أنّ الدكان سيكون له، وأنه فخورٌ به مقدّماً.

علّق يوسف الصورة على الحائط، وجلس يبكي ويضحك في وقتٍ واحد. كانت أول ذكرى يستعيدها لنفسه بعد أن أعاد للناس كل شيء.

الفصل الحادي عشر: بعد الفجر

لم يعد الدكان يفتح كل ليلة بعد ذلك. صار يفتح في ليالٍ قليلة، لمن يستحق حقاً، وبعد أن يشرح يوسف الثمن لكل طارق. والغريب أنّ الناس صاروا يأتون لا ليصوّروا، بل ليسمعوا الحكاية: حكاية رجلٍ دفع ذكرياته ليعيد لأهله أيامهم.

تزوّج يوسف وسلمى في الربيع، على ضفة النيل، وكانت أمّ صالح في الصف الأول تبكي وتضحك، وفؤاد جاء من المدينة وأنشد للعريسين أغنية أمه، والرسّام الغريب أرسل من القاهرة لوحةً كبيرة للدكان: قريةٌ على نيل، وكل بيوتها مضاءة.

وفي إحدى أمسيات الشتاء، جلست سلمى تقلّب دفتر ذكريات يوسف الذي كانت تكتبه بخطّها، وقالت: «شوف، كل اللي راح منك مكتوب هنا. أنا حفظتهولك. ولو نسيت يوماً، هقراهم ليك زي ما بنقرا حكايات الأطفال». فنظر إليها يوسف وعرف أنّ أغلى ما فاز به لم تلتقطه كاميرا.

وما زال الدكان قائماً عند منحنى النهر حتى اليوم. إن مشيت في القرية ليلاً ستسمع صرير بابه الأزرق، وسترى من نافذته ضوءاً أحمر خافتاً كقلبٍ صغير. ويقول أهل القرية إنّ من يقف أمام كاميرته يعود إليه ما نسيته روحه. لكنّ الأدقّ أن يقال: من يقف أمام كاميرته يعرف أخيراً أنّ الذكريات لا تضيع أبداً؛ إنها تنتظر فقط من يحبّنا كفايةً ليبحث عنها.



رسم توضيحي بالذكاء الاصطناعي: فجر على دكان الصور المنسية.

خاتمة

وهكذا انتهت حكاية يوسف ودكانه، لكنّ حكايتك أنت لم تنتهِ. فكر في ذكرى واحدة تحبّ ألا تنساها أبداً. تمسّك بها. عشها من جديد في خيالك الليلة. فالكاميرات تتعب، والمحاليل تجفّ، لكنّ القلب الذي يتذكّر بحبّ لا ينسى أبداً.

عن الكاتب



حمادة حامد محمود نور الدين

شاب مصري صعيدي، ينتمي إلى قرية أولاد خلف، مركز دار السلام، محافظة سوهاج.

درس في التعليم الفندقي، وخاض تجارب حياتية وعملية مختلفة، من بينها الخدمة العسكرية والعمل والسعي لبناء مستقبله.

يهتم بالتصوير والتصميم، ويعتز بجذوره الصعيدية وهويته المصرية. يقدّم من خلال كتاباته حكايات مستوحاة من الحياة والواقع الإنساني.

«الكاميرا لا تلتقط الضوء وحده؛ إنها تحفظ للناس أيامهم.»

رواية أصلية من تأليف حمادة حامد محمود نور الدين. صدرت في نوفمبر 2026.